

أنور الجندي بين نقد الاستشراق ونقد المثاقفة الاستشراقية

مصطفى رافع

جامعة البويرة

تاريخ القبول: 2020-08-23

تاريخ الإرسال: 2020-05-22

الملخص:

تأتي هذه الدراسة الموسومة بـ " أنور الجندي بين نقد الاستشراق ونقد المثاقفة الاستشراقية " لتحاول الوقوف عند الأسس التي قام عليها المشروع النقدي للاستشراق والمثاقفة الاستشراقية عند أنور الجندي باعتباره واحدا من أبرز المفكرين العرب الذين كانت لهم إسهامات في مجال نقد الاستشراق، وموقف اتجاه الخطاب الاستشراقي والمثاقفة الاستشراقية.

الكلمات المفتاحية: أنور الجندي ؛ الاستشراق ؛ نقد الاستشراق ؛ المثاقفة

الاستشراقية.

Abstract:

This study entitled Anwar AL-jundi between criticism of orientalism and criticism of the orientalism acculturation comes to try to stand on the foundations the critical project of orientalism and the orientalism acculturation at Anwar AL-jundi as a one of the most prominent Arab thinkers who have had contributions in the field of criticism of orientalism, and the attitude towards orientalism and the orientalism acculturation.

Key words : Anwar AL-jundi , Orientalism, Criticism of orientalism , the orientalism acculturation.

البحث:

1. مقدمة:

لعل المتابع للخطاب الاستشراقي يدرك ما أثاره من سجل واسع في الأوساط الأكاديمية العربية، ما أدى إلى انقسام الدارسين العرب إلى اتجاهين متضادين، اتجاه منبهر ومتماه مع المستشرق حيث يبرز تأثر أصحاب هذا الاتجاه بالمستشرقين تأثراً عميقاً إلى درجة أنهم كانوا كثيراً ما يأخذون بأراء المستشرقين ويتحمسون في الدفاع عنها والترويج لها. فكانوا بمثابة ثمرة من ثمرات الحركة الاستشراقية.

لكن في مقابل هذا الانسياق وراء طروحات المستشرقين والاستسلام فكرياً لمقولاتهم من قبل دارسين ينتمون إلى الثقافة العربية، نجد هناك اتجاه آخر انبرى لنقد الاستشراق والكشف عن خلفياته، وإبراز أثره على الفكر عموماً والأدب خصوصاً، ليتمد نقدهم إلى نقد الفكر الغربي، ونقد أصحاب الاتجاه الذي مثل علاقة الانبهار والتماهي مع المقولات الاستشراقية، أي نقد المثاقفة الاستشراقية، وكان من بين هؤلاء أنور الجندي*

* أنور الجندي هو مفكر مصري ولد عام 1917، نشأ في عائلة ذات علم وثقافة، كان والده مهتماً بالثقافة الإسلامية، حفظ القرآن الكريم كاملاً في سن مبكرة، فآثر تكوينه الإسلامي على آرائه ومواقفه الفكرية التي يطرحها في مؤلفاته، درس بالجامعة الأمريكية ونال شهادة البكالوريوس في الاقتصاد وإدارة الأعمال، شغل منصب عضو في جمعية الأدب الإسلامي، اشتغل بالدراسات الإسلامية خاصة في مجال التغريب والغزو الثقافي، ونقد الاستشراق، نادى بتخليص الأدب العربي من النفوذ الأجنبي وتجريده من التبعية له، توفي أنور الجندي عام 2002، تاركاً وراءه العديد من المؤلفات من أبرزها، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، أهداف التغريب في العالم الإسلامي، الفكر الغربي دراسة نقدية، شبهات التغريب، التيارات الوافدة، مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، عموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث وغيرها من المؤلفات الغزيرة.

الذي عرف بدفاعه عن مقومات الأمة والمنافحة عن خصوصيتها الحضارية والثقافية.

ومن هنا تتأسس الدراسة على إشكاليات هي:

- ما هي السمات الجوهرية التي تطبع نقد أنور الجندي للاستشراق والمثاقفة الاستشراقية؟

- ما هي المنهجية النقدية التي تبناها الجندي في نقده للاستشراق والمثاقفة الاستشراقية؟

- ما هي الخلفيات التي وجهت نقد الجندي للاستشراق والمثاقفة الاستشراقية؟

- ما مدى وعي أنور الجندي بخصوصية الخطاب الاستشراقي ومكوناته والخلفيات التي يستند إليها هذا الخطاب؟

2. في الاستشراق والمثاقفة الاستشراقية:

2-1. الاستشراق: المفهوم والمسار والخلفيات:

يراد بالاستشراق في معناه العام دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأهمه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره¹، ويشمل الاستشراق في هذا التعريف دراسة الشرق كله أقصاه ووسطه وأدناه، وهذا هو الاستشراق القديم الذي يعتبر رؤية غربية عن الشرق، لكن هناك تعريفات تنحى بالاستشراق منحى التخصص حيث يراد به ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات

1 أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار تحفة مصر، القاهرة، ص512.

المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما²، وهذا هو الاستشراق الجديد الذي يحل فيه الإسلام محل الشرق، ومن هذين التعريفين للاستشراق يمكن أن نعرف المستشرقين على أنهم الغربيون الذين تخصصوا في دراسة الشرق من كافة جوانبه علومه، تاريخه، أديانه، شعوبه، لغاته، وآدابه... إلخ، لأهداف مختلفة ودوافع شتى³، هذا من جهة مفهوم الاستشراق بمعناه العام، أما من ناحية مفهوم الاستشراق بمعناه الخاص يكون المستشرقون هم الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية⁴، ومن خلال هذا التعريف الذي يقدمه مالك بن نبي يصنفهم إلى صنفين، من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل جرير دور بياك، والقديس توماس الإكويني، وطبقة المحدثين مثل جولد تسيهر⁵.

ومن حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتاباتهم: فهناك طبقة المداحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها⁶.

ويعتبر إدوارد سعيد الاستشراق جهازا ثقافيا ينحصر في العدوان والنشاط وإصدار الأحكام وفرض الحقائق والمعرفة⁷، ويقسمه إلى استشراق سافر وهو

2 إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، ط3، الكلمة للنشر والتوزيع، مصر، 2000، ص12.

3 المرجع نفسه، ص11.

4 مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ط1، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1969، ص5.

5 المرجع نفسه، ص5.

6 المرجع نفسه، ص5.

تعبير عن المجتمع الشرقي بلغاته وآدابه وتاريخه...، وهو استشراق قابل للتغيير، واستشراق كامن أو مضمّر وهو الفكر اللاوعي حول هذا المجتمع الشرقي؛ وله خصائص ثابتة لا تتغير⁸.

هذا وقد بدأ الاهتمام الأوروبي بالدراسات الإسلامية والعربية في القرن الحادي عشر، وذلك إثر الحملات الصليبية على العالم الإسلامي (1096-1143)، حيث صدرت أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم عام 1143، حيث كانت بداية الترجمات من اللغة العربية إلى اللاتينية واللغات الأوروبية تهدف لخدمة الطموحات التبشيرية المسيحية من جهة، ونقل التراث الإسلامي والاستفادة منه في عملية العروج الحضاري من جهة أخرى، وبدأت الدراسة الجادة للغة العربية في أوروبا وبلغت ذروة ازدهارها في إسبانيا، حيث تم طبع كتاب القانون لابن سينا في ثمانينيات القرن السادس عشر في مطبعة العالم التي أسسها فيرويناند فون ميديشي، وكان بذلك أول كتاب يطبع بالأحرف العربية⁹.

ويذهب محمود حمدي زقزوق إلى أن الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل في ذلك الصراع الذي دار بين العالمين الإسلامي والنصراني في الأندلس وصقلية، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة اشتغال الأوروبيين بتعاليم الإسلام، ولهذا يمكن القول بأن تاريخ الاستشراق في مراحل الأولى هو تاريخ للصراع بين العالم النصراني الغربي في القرون

7 إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص322.

8 إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية عن الشرق، مرجع سابق، ص323.

9 ينظر: هيثم مزاحم، الاستشراق بين النقد والمراجعة، تاريخ النشر: 2017/04/12، www.arabiyaa.com.

الوسطى والشرق الإسلامي على الصعيدين الديني والأيدولوجي، فقد كان الإسلام يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة إلى العالم النصراني في أوروبا على المستويات كافة¹⁰.

ومع بزوغ فجر النهضة الأوروبية في العصر الحديث عقب سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة 1453م نشطت حركة الاستشراق الأوروبي وبلغت ذروتها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع المد الاستعماري الغربي، وهكذا استقر مصطلح الاستشراق بما انطوى عليه من دلالات وأبعاد تاريخية وسياسية وحضارية متباينة¹¹.

ويذكر مالك بن نبي أن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها فكانت في مرحلة القرون الوسطى قبل وبعد طوماس الأكويني تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها التي أتاحت لها فعلا تلك الخطوات الموفقة التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر، وفي المرحلة العصرية والاستعمارية فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية للسيطرة على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها¹²، ومن هنا يتضح لنا تسخير المنظومة الكولونيالية الأوروبية للمعرفة الاستشراقية الخادمة للمطامع الاستعمارية وأجنداتها.

10 محمد حمدي زرقوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط1، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1989، ص28.

11 ماجد مصطفى، في الأدب العربي الحديث والمعاصر، ط1، دار الكرز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص157.

12 مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص8،9.

ويذهب إدوارد سعيد إلى أنه كان من بين التطورات المهمة في الاستشراق في القرن التاسع عشر ما يشبه تقطير الأفكار الأساسية عن الشرق وصبها في قالب منفصل له دلالاته ووجوده الذي لا ينازعه شيء، وكانت تلك الأفكار تشمل نزعة الشرق للملاذ الحسية وللإستبداد وعقليته المنحرفة وما اعتاده من عدم الدقة وتخلفه¹³. ومن هنا تشكلت تلك الصورة النمطية في الوعي الغربي عن الشرق، كما نلاحظ الإيديولوجية العنصرية الكولونيالية في هذه الصورة التي تنزع إلى تهميش الشرق ثقافيا فيبدو هشاً وقاصراً وينضوي إرادياً أو لا إرادياً في الثقافة المركزية، وهذا كله كان الإطار الموجه لجل المستشرقين الذي يتحركون في إطار المركزية الأوروبية، ما نستنتج أن اهتمام الغرب بالشرق لم يكن في أية حال من الأحوال من أجل الشرق بل كان دوماً من أجله هو.

2-2. المثاقفة الاستشراقية بوصفها نمطا من أنماط المثاقفة:

يحيل مصطلح المثاقفة إلى مصطلحات أخرى تتوازي أو تتساق مع مثل التحول الثقافي، تداخل الحضارات، التثاقف، الغزو الثقافي، التبادل الثقافي، الحوار الثقافي، التعارف...، ويذكر الباحث عبد الجليل شوقي أن مصطلح المثاقفة تأرجح عند الدارسين بين فهمين، المثاقفة باعتبارها تفاعلا فكريا وثقافيا متكافئ الأطراف، والمثاقفة باعتبارها اجتياحا واستعمارا فكريا وثقافيا

13 إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية عن الشرق، مرجع سابق، ص 322،323.

للقوي على الضعيف¹⁴، هذا وقد قدمت تعريفات عديدة للمثاقفة نذكر منها:

*المثاقفة هي اكتساب ثقافة مغايرة للثقافة الأصلية للفرد أو الجماعة، فهي تشير إلى الثقافة الأجنبية التي يضيفها الفرد أو الجماعة للثقافة الأصلية، وذلك من وجهة نظر مستقبل تلك الثقافة، حيث تضاف الثقافة الجديدة إلى أو تختلط بثقافة الفرد أو الجماعة المكتسبة محليا منذ الميلاد¹⁵.

*المثاقفة هي عملية التغيير أو التطور الثقافي الذي يطرأ حين تدخل جماعات من الناس أو الشعوب بأكملها تنتمي إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال أو تفاعل يترتب عليها حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في تلك الجماعات، كما تعني التواصل الثقافي بين الأمم والحضارات¹⁶.

وهذان التعريفان ينحوان بالمثاقفة باتجاه كونها عملية تلاقح ثقافي وإثراء لمحتويات الثقافة، وباعتبارها تحولا ثقافيا وتداخلا بين الحضارات وتجاورا وتجاورا بين الثقافات، وليس باعتبارها هيمنة ثقافة على أخرى.

وتجدر بنا الإشارة إلى بيان الفرق المصطلحي الكائن بين مصطلح المثاقفة ومصطلح الشاقف، وهما مصطلحان قريبان من بعضهما البعض حتى ليبداون

14 عبد الجليل شوقي، المثاقفة في الدراسات الحديثة هيمنة أم حوار؟، تاريخ النشر 2012/01/12، <http://almothaqaf.com>

15 جمال نجيب التلاوي، المثاقفة عبد الصبور والبيوت دراسة عبر حضارية، تر: ماهر مهدي وحنان الشريف، ط1، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا- مصر، 2005، ص7.

16 هائل علي المذابي، المصعد في نقد المسح، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص 19، 20.

مترادفين، حيث إن مصطلح التشافف يستبطن تلك النظرة المتعالية لثقافة إلى أخرى والرغبة في ازدهائها، أو على الأقل فرض الشروط عليها، إنه التفاعل الإمبريالي الاستعماري ذو القطب الوحيد¹⁷، وهذا المفهوم للتشافف يتساوق مع مفهوم المثاقفة باعتبارها هيمنة ثقافة على أخرى والذي هو جوهر الخطاب الكولونيالي وما بعده الذي يضاعف تبعات الاستبعاد والاستقطاب والهيمنة في التغطية على الخصوصيات الثقافية وعناصر الهوية القومية¹⁸، بينما يشير مصطلح المثاقفة إلى ذلك التفاعل بين الثقافات على أساس الاحترام والاعتراف المتبادل بالخصوصيات والتعايش والتواصل¹⁹، وهنا تكون المثاقفة عاملا في إثراء محتويات الثقافة الأصلية.

إن فكر المثاقفة أخذ مساراته المعرفية في الساحة العربية إلى حيز التنظير والبناء الفكري بعد هزيمة 1967، فقد بدأت القراءات الحديثة والمقاربات والمداخل إلى مطاوي تراثنا تشغل حيزات الوعي العربي الحديث والمعاصر، وجرت التحولات من المعالجة الخاصة بالعلاقة بين التراث والمعاصرة إلى العلاقة بين العرب وغيرهم، وأخذت عناوين تتكرر في أكثر من مناسبة وحديث ومقال مثل نحن والآخر، نحن والغرب، الإسلام والغرب، الإسلام وأوروبا أو العكس، وكان البحث في مثل هذه الثنائيات المفهومية ينمو شيئا فشيئا حتى أصبح حقلا معرفيا²⁰، وقد أثار مصطلح المثاقفة جدلا واسعا في

17 عبد الجليل شوقي، المثاقفة في الدراسات الحديثة هيمنة أم حوار؟، مرجع سابق.

18 هائل علي المذايبي، المصعد في نقد المسرح، مرجع سابق، ص20.

19 عبد الجليل شوقي، المثاقفة في الدراسات الحديثة هيمنة أم حوار؟، مرجع سابق.

20 رسول محمد رسول، نقد العقل التعارفي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005، ص44، 43.

العالم العربي فالبعض يرى أنه غزو ثقافي، وأنه نتاج تأثير ثقافة غازية قاهرة في ثقافة مستقبلة مقهورة، والبعض الآخر يراه عبارة عن لقاح وتلاقح ثقافي، أو عبارة عن تجاور وتجاوز الثقافات²¹.

ويذكر هشام غصيب أنماط المثاقفة التي يراها الوسيلة الثقافية الرئيسية في بناء عقل حركة التحرر القومي العربية، حيث يصنفها إلى ثلاثة أنماط هي:

(أ) **المثاقفة السلفية:** وهي تتمثل في السعي إلى محاكاة جانب من التراث والتماثل معه²²، رغبة في أن يقدم التراث حلاً لأزمة الذات العربية الراهنة، وأن يقدم لها البديل الذي تستطيع من خلاله أن تهرب من تبعيتها للآخر ومواجهته في آن واحد لكي تؤكد وجودها الفاعل.

(ب) **المثاقفة الاستغرابية:** وهي المثاقفة التي تهدف إلى بناء عقل حركة التحرر القومي العربية، وتتمثل في عملية بناء الذات والارتقاء إلى روح المستقبل، على أن الاستغراب في هذا النمط من المثاقفة هو محاولة استملاك الغرب وتجربته التاريخية الثورة واستيعابها نقدياً²³، و يأتي مصطلح الاستغراب من هذا المنظور كمقابل لمصطلح الاستشراق أو كما يسميه البعض بالاستشراق المعكوس، والذي يعبر عن قدرة الأنا باعتبارها شعوراً محايداً على رؤية الآخر ودراسته وتحويله إلى موضوع، ومعرفة تكوين ثقافته وبنيتها دون تشويهها، كما أن مهمة الاستغراب هو القضاء على المركزية

21 جمال نجيب التلاوي، المثاقفة عبد الصبور واليوت دراسة عبر حضارية، مرجع سابق، ص7.

22 هشام غصيب، الثقافة الاستغرابية ودورها في بناء الفكر النهضوي العربي، مجلة الآداب، لبنان، ع1، يناير 1993، ص21.

23 هشام غصيب، الثقافة الاستغرابية ودورها في بناء الفكر النهضوي العربي، مرجع سابق، ص21.

الأوروبية، وبيان كيف أخذ الوعي الأوروبي مركز الصدارة عبر التاريخ الحديث²⁴.

ج) الثقافة الاستشراقية أو التغريبية: وهي التي تتمثل في سعي الطبقات الاجتماعية التابعة التي تمارسها إلى محاكاة الغرب والتماثل معه برغم استحالة ذلك بالنظر إلى وظيفة هذه الطبقات وموقعها من التقسيم العالمي للعمل، إنها تسعى بذلك إلى مثل أعلى لا يمكن أن تكونه بحكم تكوينها التاريخي ووضعه البنيوي²⁵، وظهر هذا النمط من أنماط الثقافة نتيجة التلقي العربي لمعطيات العقل الاستشراقي، ومن هنا يوصف الاستشراق بأنه قطاع معرني في الثقافة العربية، والذي من مقولاته المركزية الغربية والتفوق العرقي وثنائية المركز والأطراف؛ هذه المقولات التي تؤسس منطق الاستشراق²⁶، وبناء على هذا يذهب هشام غصيب إلى أن الاستشراق غزو ثقافي وعنفي فكري وجزء لا يتجزأ من العدوان الإمبريالي الغربي، ويرى بأن هذا هو العنصر الجوهرى للاستشراق، وليس هو مجرد دراسة للحضارة الإسلامية من باحثين ينتمون إلى حضارة أخرى لهم بناء شعوري مخالف لبناء الحضارة التي يدرسونها²⁷، كما يرى الناقد اليميني هايل علي المذابي اندراج الاستشراق حتى وقت قريب في مفهوم الثقافة التي تفيد تأثير ثقافة قوية أو مستقوية وغازية وقاهرة على ثقافة ضعيفة أو مستضعفة وغزوة ومقهورة²⁸، وعليه

24 حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 32، 36.

25 هشام غصيب، الثقافة الاستغرابية ودورها في بناء الفكر النهضوي العربي، مرجع سابق، ص 21

26 رسول محمد رسول، نقد العقل التعارفي، مرجع سابق، ص 44، 54.

27 هشام غصيب، الثقافة الاستغرابية ودورها في بناء الفكر النهضوي العربي، مرجع سابق، ص 26.

28 هايل علي المذابي، المصعد في نقد المسرح، مرجع سابق، ص 20.

يمكننا القول: إن المثاقفة الاستشراقية تمثل محطة إخفاق في تلقي مقولات العقل الاستشراقي، إذ جعلت الفكر العربي ينهل من الفكر الغربي جل منظومته المعرفية ومنهجية تفكيره.

3. أنور الجندي ونقد الاستشراق:

انطلق مفهوم نقد الاستشراق في بدايات النهضة العربية عندما لاحظ المفكرون العرب والمسلمون دخول عنصر الاستشراق بقوة في دراسة التراث العربي الإسلامي، وقد مر نقد الاستشراق بمراحل ثلاثة: مرحلة الانبهار حين تبنى بعض أبناء العربية والإسلام أفكار المستشرقين وتلقفوها متأثرين بهم، ومرحلة الالتفات حيث برزت في هذه المرحلة الانتقادات السلبية حول المستشرقين ببيان مفهوم الاستشراق ومنطلقاته وأهدافه وأغراضه، والمرحلة الإحيائية مثلت المبالغة في النقد السلبي وتعميم النظرة التأميرية على الاستشراق بشموليته واتهام المستشرقين بالعمالة للحكومات المستعمرة²⁹.

ويقسم فؤاد زكريا نقاد الاستشراق إلى فئتين؛ فئة تنقد الاستشراق من منظور إسلامي، وتتميز بعمق جذورها الإسلامية فضلا عن حماسها الدينية المتوقدة، وفئة تنقد الاستشراق من منظور علماني مرتكز على البعد السياسي - الحضاري، ويعتبر فؤاد زكريا كلا النقيدين أحادي الجانب من خلال تركيز الفئة الأولى على الجانب الديني دون إدراك واضح للأبعاد السياسية

29 ينظر: علي بن إبراهيم النملة، نقد الاستشراق والمستشرقين في المراجع العربية، ط1، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت-لبنان، 2010، ص15 وما بعدها.

والحضارية، وتركيز الفئة الثانية على العامل السياسي الحضاري دون عمل حساب كاف للبعد الديني³⁰.

يمثل أنور الجندي اتجاه نقد الاستشراق الذي يعتبر أحد الاتجاهات* التي نشأت نتيجة تعاطي الدارسين العرب مع المتن الاستشراقي، حيث سعى الجندي في تجربته النقدية للاستشراق إلى الكشف عن خلفياته وأهدافه وأثره على الفكر والأدب، دون الانبهار والتماهي بمقولاته، ويرجع ذلك إلى تكوينه الثقافي المشبع بالقيم الإسلامية، ومعرفته العميقة بخلفيات الاستشراق الذي يتدثر بدثار الإيديولوجيا والمركزية الغربية، حيث يتساءل الجندي في معرض الإنكار عن كيف يمكن للاستشراق أن يتحرر من إيديولوجيات الغرب وهو وليدها ومن صنعها وخدمها والمرتبطة بها ارتباطا جذريا وعضويا³¹، ويخضع (الاستشراق) في الكثير من الأحيان الروح العلمية والموضوعية في الطرح والمنهج، فجدد الجندي ينفي أن يكون اهتمام المستشرقين بالشرق والإسلام خالصا لوجه العلم، وهنا يطرح عديد الأسئلة منها لماذا يركز الاستشراق على التصوف الفلسفي حين يدرس العقيدة؟ وعلى الباطنية حين يدرس التاريخ؟ ولماذا يولي اهتمامه للحلول والاتحاد في الدراسات الصوفية؟ وأبي نواس وبشار في الدراسات الأدبية؟ وأبي بكر الرازي وابن الراوندي في الدراسات الفلسفية؟ ولماذا يهاجم المتنبي بعنف ويهاجم الغزالي وابن خلدون؟³²، وهذه الأسئلة

30 ينظر: فواد زكريا، نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة، مؤسسة هنداوي، 2017، ص8 وما بعدها.

* هناك اتجاهان آخران وهما اتجاه الانبهار والتماهي، واتجاه التماهي والتمايز.

31 أنور الجندي، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، دار الأنصار، لبنان، 1983، ص 206.

32 ينظر: أنور الجندي، أهداف التعريب في العالم الإسلامي، إصدارات الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية، الأزهر الشريف - مصر، ص33.

التي يطرحها الجندي إنما تنم عن اطلاعه الواسع وإلمامه بأعمال المستشرقين، كما تكشف عن أن الجندي لا يستقبل المقولات الاستشراقية في شكل صور معلبة مجردا عن أي خلفية نقدية تسمح له بإخضاع تلك المقولات إلى المساءلة والنقد وتفكيك الأهداف الخفية المسطرة لها، ولا يكتفي الجندي بنقد الخطاب الاستشراقي بل يتجاوز ذلك إلى نقد الفكر الغربي، ويكشف عن مرتكزات هذا الفكر وأسسها التي بني عليها، كما يظهر ذلك واضحا في كتابه الفكر الغربي دراسة نقدية، ومع ذلك يقر الجندي بجهود المستشرقين حيث يقول: "من المقطوع به أن الاستشراق من خلال هدفه ومهمته قدم للفكر الإسلامي العربي أشياء كثيرة نافعة لا يمكن إنكارها ولا تجاهلها، وذلك في مجال إحياء التراث والتبويب والفهرسة، ونحن نقدر فضل المستشرقين في تبويب التراث وإعداده وتحليله"³³.

ويعتبر الجندي الاستشراق من أبرز أدوات التغريب والغزو الثقافي، والذي يراه يرمي إلى استكشاف قوى المسلمين للعمل على ضربها، كما يراه أيضا يرمي إلى إثارة الشبهات حول القيم الأساسية التي يقوم عليها وجود المسلمين، فالهدف الحقيقي للاستشراق في نظره ليس العلم وإنما التعرف على مقدرات العالم الإسلامي من قوى نفسية واجتماعية للعمل على هدمها لأنها تحول دون تمكين النفوذ الأجنبي³⁴.

33 أنور الجندي، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، مرجع سابق، ص 203.

34 أنور الجندي، أهداف التغريب في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 33.

ويكشف الجندي عن وجهة نظر المستشرقين في كثير من القضايا والتي يذكر أنها خاضعة لمحاولة فهم الإسلام على أنه دين لاهوتي خالص كالمسيحية، والتأثر بوجهة نظر السياسة الاستعمارية والخضوع لها، أو خاضعة لقصور أدواتهم البيانية والفكرية عن فهم طبيعة الإسلام والفكر الإسلامي الجامعة التي تربط بين الثابت والمتغير والروحي والمادي والديني والأخروي³⁵.

ويرى أنور الجندي في كتابه خصائص الأدب العربي أن للاستشراق أثرين واضحين في الأدب العربي، حيث يتمثل الأثر الأول حسب رأيه في توجيه الدارسين العرب والمسلمين في معاهد الغرب إلى اتخاذ مناهج الأدب الغربي أساسا للبحث والتماس أسلوب النقد من نظريات الأدب الأوروبي، وهذا تجلّى فيما قام به كل من أحمد ضيف وطه حسين ممن درسوا في فرنسا، أو عبد الرحمن شكري الذي درس في إنجلترا، أو ما أخذه من اتصال بالمستشرقين خارج المعاهد كأمين الخولي أو من نقلوا هذه المذاهب من كالمازني والعقاد³⁶، وهذا الأثر هو الذي سيفرز ما يسمى بالثقافة الاستشراقية.

كما يذكر أنه نقلت إلى الأدب العربي وأقحمت فيه أساليب النقاد الفرنسيين مثل سانت ييف وفرديناند بروتتيير، وإيبوليت تين من الأدب الفرنسي، كما نقلت أساليب النقاد الإنجليز من أمثال ويليم هازلت وماكولي من الأدب الإنجليزي، و يكشف الجندي عن الخلفيات النظرية والمعرفية

35 أنور الجندي، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، مرجع سابق، ص206.

36 أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985، ص235.

للمناهج النقدية التي تم إقحامها في دراسة الأدب العربي ويرى أنها خاضعة في أصولها إلى نظريات التطور لدارون، والتحليل النفسي لفرويد، والتفسير المادي للتاريخ لماركس والعلوم الاجتماعية لدوركايم وليفني بريل³⁷، وهي في نظره نظريات مادية تقوم على مفهوم أن الإنسان خاضع للبيئة والعصر وأنه مجبور وليست له إرادة، وأنه حيوان مادي يخضع للجنس³⁸.

ويريد الجندي من خلال وقوفه عند خلفيات النظريات النقدية الغربية التي كان لها أثر في الأدب العربي أن يبين مدى استيعابه لبنية الفكر الغربي وكشف نقاط الخلل فيها، والتي يراها لا تتناسب مع البنية الفكرية للمجتمع العربي الذي له خصوصيته الثقافية، كما أنه يجعل من نقد الاستشراق مدخلا لفهم عقلية الغرب وفكره ومن ثم نقده.

بينما يتمثل الأثر الثاني للاستشراق في الأدب العربي في آثار المستشرقين أنفسهم ونظرياتهم في الأدب العربي التي جاءت نتيجة دراساتهم له من أمثال المستشرق الإنجليزي ديفيد مرجليوث (1818-1940) صاحب كتاب "أصول الشعر العربي"، وهاملتون جب (1895-1971) صاحب كتاب "مدخل إلى تاريخ الأدب العربي"، والمستشرق الألماني وكارل بروكلمان (1868-1956) صاحب كتاب "تاريخ الأدب العربي"، والمستشرق الفرنسي بلاشير (1900-1973) صاحب كتاب "تاريخ الأدب العربي"، وجاك بيرك (1910-1995) صاحب كتاب "ترجمة معاني القرآن".

37 أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص 235.

38 أنور الجندي، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، مرجع سابق، ص 194.

ويسلط الجندي الضوء على آراء المستشرقين في دراساتهم للأدب العربي، حيث يشير إلى أن المستشرق الإنجليزي مرجليوث هو أول من أثار الشك في الشعر الجاهلي وقال بأنه منحول، ويذكر قوله بأن الشعر الذي يُقرأ على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية³⁹.

كما يأتي الجندي على ذكر تقسيم عصور الأدب العربي الذي جاء به المستشرق الإنجليزي هاملتون جب، فيذكر أنه يطلق على عصر ما قبل الإسلام الذي يصفه المسلمون بالعصر الجاهلي اسم العصر البطولي، وذلك جريا وراء النظرية المكذوبة بأن العرب كانوا على استعداد للنهضة قبل مجيء الإسلام، ولم يكن عمل محمد عليه الصلاة والسلام إلا أن قادهم إلى النهضة، وهذا في محاولة المستشرقين تزييف عصر ما قبل الإسلام على أنه عصر استنارة وحضارة ليثبتوا أن الإسلام لم يقم بأي تغيير حقيقي وإنما جاء متابعا لما قبله⁴⁰، كما يأتي الجندي على ذكر إشارة جب إلى أن المستشرقين يرفضون مصطلح العصر الجاهلي، ويعلق الجندي على أن هذا الرفض مبني على إنكارهم فكرة الجاهلية الضالة عابدة الوثن والتي قامت على الظلم والشرك... إلخ، بينما يطلق جب على عصر الإسلام عصر التوسع، وذلك ارتباطا بفكرته عن بطولة الجاهلية⁴¹.

ويواصل أنور الجندي عرضه لأراء المستشرق الإنجليزي هاملتون جب، فيذكر تركيزَ هذا الأخير على أثر الثقافة اليونانية على الأدب العربي وإرجاعه

39 أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص 237.

40 أنور الجندي، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، مرجع سابق، ص 194.

41 أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص 239.

كل ما في الأدب العربي من تقدم وازدهار إليها، ورأيي جب في أن النشر الفني فارسي الأصل، واعتباره الفلسفة الإسلامية فلسفة يونانية، ووقوفه وقفة خاصة عند أبي نواس وشار رائدي النزعة الشعبوية، واهتمامه أيضا بالحلاج وابن عربي، وبالמושحات والسجع والمقامات، وهي أعمال في رأي الجندي لا تشي بطابع الأدب العربي الحقيقي⁴²، وتصويره للعصر المملوكي ووصفه بأنه عصر الانحطاط⁴³. في حين يراه الجندي أنه عصر الموسوعات الحافل بدوائر المعارف الكبرى: كالمقرئزي والسيوطي... إلخ⁴⁴، وأن ما قام به المستشرق جب هو مجرد تشويه لهذا العصر وتزييف للحقائق.

4. أنور الجندي ونقد المثاقفة الاستشراقية:

لقد مثلت المثاقفة الاستشراقية مرحلة الانبهار من مراحل نقد الاستشراق، وعلاقة الانبهار والتماهي مع المقولات الاستشراقية، التي كان سببها اكتشاف الدارسين العرب وإدراكهم سعة معرفة الأوروبيين بالثقافة العربية والإسلامية أكثر مما يعرفه العرب والمسلمون، هذا الانبهار الذي تولد عبر الاطلاع على نتاج المستشرقين أو عبر التلمذة المباشرة على يد المستشرقين في إطار البعثات العلمية، وقد كان من آثار هذا الانبهار أن تبني بعض أبناء العربية والإسلام أفكار المستشرقين وتلقفوها وتماهوا معها متأثرين بهم، وكان طه حسين في طليعة هؤلاء، حتى إنه يمكننا القول إنه كان ثمرة من ثمار الاستشراق ومبشرا بالمبادئ التي دعا إليها المستشرقون في مجال دراسة

42 أنور الجندي، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، مرجع سابق، ص 194.

43 أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص 241، 240.

44 أنور الجندي، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، مرجع سابق، ص 193.

الأدب، ويظهر تأثره واضحا بالمستشرق صموئيل مرجليوث في كتابه "في الشعر الجاهلي" الذي صدر عام 1926، الذي أحدث رجة عنيفة في الساحة الثقافية والفكرية العربية أثارت حفيظة كثير من العلماء والباحثين فتصدوا للرد عليه، وكان من بين الذين تصدوا بالرد على طه حسين، أنور الجندي في كتابه خصائص الأدب العربي.

حيث يذكر أنور الجندي في الفصل الأول من الباب الرابع في هذا الكتاب أن الأثر الثاني للاستشراق المتمثل في آثار المستشرقين ونظرياتهم في الأدب العربي يتصل بما كتبه العرب من الذين درسوا في معاهد الغرب من رسائل وأطروحات، والذين خضعوا فيها لمنهج أساتذتهم أو تأثروا فيها بمفاهيمهم، كما يرى الجندي أن طه حسين لا يتوقف لحظة ولا يستحيي مرة من أن يعلن تبعيته الواضحة لأراء المستشرقين وخضوعه لمناهجهم في البحث، وأنه لا يخضع لمنهج واحد، وإنما تتشكل كتبه بالخضوع للمذاهب المختلفة، خضوعه للمذهب الاجتماعي، في دراسته عن أبي العلاء المعري، وخضوعه الواضح لبلاشير المستشرق الفرنسي (1900-1973) في دراسته عن المتنبي، وخضوعه لدوركايم الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي (1858-1917) في دراسته عن ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع وفلسفة التاريخ (1332-1406)، وخضوعه لأراء ديفيد مرجليوث حول صحة الشعر الجاهلي، وذهابه إلى أن النثر الفني في العربية فارسي الأصل⁴⁵.

45 ينظر: أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص236، 237.

ويشير الجندي إلى زكي مبارك الأديب والأكاديمي المصري هو الآخر (1862-1952) قد خضع لآراء كثيرة للمستشرقين في أطروحته للدكتوراه " النشر الفني في القرن الرابع الهجري " من خلال افتراضه أن القرآن من كلام النبي، ومن خلال موقفه عن الإعجاز ومحاولته تقليل دور الرسالة الإسلامية والنبوة في خلق الحضارة الإسلامية في النهوض بالعرب، هذه الافتراضات التي يراها الجندي كلها تستند إلى آراء المستشرقين الذين أشرفوا على رسالته ويأتي في مقدمتهم لويس ماسينيون⁴⁶ المستشرق الفرنسي (1883-1962) الذي اشتغل بالحلاج وأولاه اهتماما كبيرا (858م-922م) وآه بطلا ثوريا.

يحاول الجندي أن يكشف من خلال نقده لآتجاه الانبهار والتماهي الذي يمثل المثاقفة الاستشراقية أو ما يسمية الجندي التغريب، عن إشكالات حقيقية في واقع المثاقفة العربية، من خلال توسل النقد والدراسين العرب لأدوات بحث اصطنعها الآخر من مفاهيم ومناهج ونظريات دون وعي بالسياقات التاريخية والمعرفية والثقافية والفلسفية لها، ويأسف على تبعية هؤلاء وخضوعهم للمستشرقين سواء للمناهج أو الآراء، وينعى عليهم تسليمهم بما يقوله المستشرقون دون شك أو ارتياب ودون مساءلة.

5. خاتمة:

ما يمكن أن نخلص إليه من نتائج في ختام هذه الدراسة التي تناولت المشروع النقدي للاستشراق والمثاقفة الاستشراقية عند أنور الجندي:

46 ينظر: أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص236.

- مثل الجندي مرحلتي الالتفات والإحيائية من مراحل نقد الاستشراق.
- قيام المشروع النقدي عند الجندي على الرؤية الدينية، وهو ذو اتجاه يميل نحو التفسير التأمري للخطاب الاستشراقي.
- إن الجندي في مشروعه النقدي لعب دور المدافع أثناء هجومه على الاستشراق، وذلك من خلال محاولته إثبات وقوع المستشرقين في أخطاء أساسية مقصودة أو غير مقصودة، وسعيه أيضاً أن يعيد إلى الإسلام صورته النقية، فكان نقده دينياً دفاعياً.
- إخضاع الجندي المادة الاستشراقية إلى المساءلة والنقد وتفكيك الأهداف الخفية المسطرة لها، وعدم تلقيها في شكل صور معلبة دون الاتكاء إلى خلفية نقدية.
- إقرار أنور الجندي فضل المستشرقين في تبويب التراث وإعداده وتحليله.
- انتقال الجندي من نقد الخطاب الاستشراقي إلى نقد الفكر الغربي، من خلال بيان الأسس والخلفيات التي قام عليها هذا الفكر ونقدها
- يكشف نقد الجندي لاتجاه الانبهار والتماهي مع المقولات الاستشراقية الذي يمثل الثقافة الاستشراقية عن إشكالات حقيقية في واقع الثقافة العربية ووقوعه - هذا الاتجاه - في ثقافة المطابقة مع الآخر الغربي.